سُقراطُ في السُوق

بقلم الحكيم سقراط الحبيب

— ١ —

كانت الشوارع مكتضة بالكتل الآدمية المتراصة والناس يزحم بعضهم بعضا وهم في طريقهم الى المسجد وكنت أقف في منعطف يطل على احدى الازقة الملتوية ، وانا اعجب لسر هذا العمل ، فالمدينة قد قذفت بشيبها وشبانها في تلك الشوارع ، فهل حدث مصاب جلل ، دعاهم الى الاجتماع الخطير ؟ . .

والتفت جانبا فابصرت شيخا يتوكأ على عصاه ويدب بأناة وضعف لاهثاً متقطع الانفاس ، فتقدمت نحوه وابتدرته بالسلام ، فرد علي السلام ببشاشة ، وهو يعجب لهيجتي . فقلت « ياعماه انا انسان غريب عن هذا البلد فهل لي ان اوجه اليك بعض الاسئلة لأمسح ما علق بذهني من فضول ؟ » فرد علي باسماً (على الرحب والسعة ، وستراني غير ضنين عليك بشيء) . . فاخذت بيده الى دكة قريبة ، فجلسنا عليها وهو يتمتم (عذرا يابني اذا ما لاحظت علي الضعف ، فقد اخذت برقاب الخامسة والسبعين من سني حياتي ، ولا ادري هل سيطول العمر بي أم تختزله اكف الحمام ، فقد ضقت ذرعا بهذا العهد المزري) .

قلت : عافاك الله ياسيدي ، ومد في شيخوختك المباركة ، فانك قد لابست السنوات الطويلات ، وتشوفت عيناك ذلك العهد الخالد ، عهد محمد « ص » وهو يضفي تعاليمه على الانسانية المعذبة ، ويفتح للعرب أبوابا للعظمة والفتوح ، ولم تزل تواكب الزمن فطويت عهود الخلفاء الاربعة ، وها انت تدرك عهد خليفة دمشق (معاويه) واتمنى ان تستطيل على المتاعب زمناً جديداً آخر .

قال : يالها من ذكريات حلوة ترف في خاطري ، ويا لتلك العهود الزاهرة .. رحمكم الله جميعا يا خلفاء محمد (ص) فقد أديتم تعاليمه على اكمل الوجوه ، ولم تخالفوا له سنة ، فارضيتم ربكم وهذه الرعية .

قلت : فما بال الناس يتزاحمون بالمناكب ؟

قال : انهم يقصدون المسجد ، فعما قليل سيؤمهم الخليفة (معاوية) واتباعه ليأخذ البيعة لابنه « يزيد » من الناس .

قلت : وردتنا اخباركم بأن الخلافة شورى بينكم ، لايركب متنها امرؤ إلا بعد تزكية الجميع .. وعرفنا عنكم انكم لاتؤثرونها على سلف لخلف ، كالذي تريدون صنعه الآن في الابن بعد أبيه

قال : تلك سنة مستحدثة لأول مرة ، ولعل معاوية قد اقتبسها من الاكاسرة وما نحن له بمنصتين

قلت : أرى في اطواء حديثك بعض التقمه ، فهل لم يجمع الناس على البيعة ؟

قال : الناس هنا اهواء موزعة ، وافكار مبلبلة ، ولكن رؤوسنا المدبرة لا ترتضي ان تذل اعناقها لمعاوية ، وتمنحه يدها صاغرة كالذليل

قلت : من تعني بكلامك ؟

قال : أولهم (الحسين) فخر الهاشميين ، وثانيهم « ابن الزبير » وثالثهم (ابن أبي بكر) ورابعهم (ابن عمر) فهم قد أبو ذلك ، واليوم يوم الفصل

قلت : هل سيمتنعون ويعصون الخليفة ؟ ألا يخافون قوته وجنوده ؟

قال : الحق يابني قوة فوق القوى . والحسين معقد الآمال ، وابن الزبير ذو دهاء ، وهيهات لهما من الرضوخ لاحكام جائرة ، وبيعة مغتصبة ولكن . .

قلت : مامعنى الاستدراك بلكن ؟

قال : لا . . لا اريد الافصاح فالجواب سيواتيك عن قريب . .

ثم قام وابتعد عني يدب كما جاء ، فاتخذت طريقا الى المسجد فلم اجد موطئا لقدم ، وعلى المنبر قد اخذ رجال يعبدون السبيل لتلك الخطة ثم نهض معاوية وتكلم

عن هدفه وأبان بأن الحسين (ع) وأصحابه قد رضوا بالبيعة وبايعوا، فقام الناس يبايعون وينصرفون وتفرقت هاذا بالحسين قد اتخذ مجلسه مطرقا لا ينبس بكلام وقد حف به جماعة عرفتهم منهم اتباع الخليفة فعجبت وولیت مسرعا ، وقد اثارت (لكن) التي قالها الشيخ مزيجاً من الخواطر في الذهن .. ولم أشك بان معاوية لم يعدم حيلة يأمن معها ثورة تلك الرؤوس المدبرة ..

— ٣ —

ومشت عجلة الزمن، وتمطت الايام ، وكنت خلالها اجوب الاقطار ثم عدت الى العراق ، ولم ازل اطوي البلدان حتى دخلت الكوفة ، والقيت بمتاعي عند بواب « الخان » وطلبت السوق لازيل غبار السفر عني في احدى الحمامات . وعرجت على ازقة ضيقة ، فاذا بي امام اعاجيب استلفتت انظاري .

الجو مكتئب يسحب حائرة ، وقد عرا الناس وجوم مخيف ، فهم يتحركون كقطعان ذاعرة تحس بوقوع خطر مداهم .. ولمحت رجالا طاعنين بالسن كتب السهاد والألم سطوراً واضحة على جباههم المقضنه وهالني امر كثير من النساء ففي أماقيهن دموع خرساء وعلى افواههن اطياف النياح والاسى ..

يالجو الكوفة الغريب المليد بعواصف الشك والفزع . . كل انسان مدفوع باحزانه ووجومه ، فكيف لي أن اجلو هذا السر الغامض ؟

وقبل أن الج باب الحمام شعرت بكف قد وضعت على كتفي فالتفت مذعورا ، فاذا بي ألمح شيخاً يبتسم عن مهابة وجلال .. ثم قال « ألست الذي كلمتني قبل سنوات . هناك في ارض الحجاز ؟ » فتوجست منه خيفة فلعله من عيون قادة الكوفة قد رابه أمري . فقلت (لعلك مخطىء ياسيدي) فاجاب (كلا . . ان عيني لا تخطىء وفراستي لا تخيب . . ألست من أبناء جزائر بحر الروم ؟) فشعرت بأن قلبي يثب من صدري ، وهمست (لعله الشيطان)

وبعد دقائق تعارفنا فاذا به عين ذلك الرفيق . . واحسست بعقارب الاسئلة التي اكتضت في رأسي تلسعني من جديد .. فقلت (ألديك بعض الوقت لتشفي غليلي مما أرى ؟) فقال « انا رهن امرك ايها الصديق »

قلت : ما بال الناس كمن دهمتهم مصيبة ، فامست حياتهم مضطربة ؟

قال : هناك على مقربة من الكوفة سجل القدر صفحة كتبت بالدماء والدموع

قلت : لقد افزعتني ياسيدي ، فهل داهم الاعداء معاقل المسلمين ؟

قال : لا تعجب ان عرتك الرعدة ، فالهزة الكبرى لما تزل آثارها تصعق كل مخلوق ، بل ان لهذه المدينة يوما تقعه داج ، ولونه محمر ، ودمعه هتان ، ففي كل قلب لوعة لمفقود .. فان الدماء الزكية لن تضيع سدى

قلت : الله !! الله !! منك ياسيدي ، أراك كمن يستشف الغيوب ، ويحلم بما هو آت!! ولكن علام كل ذلك ؟

قال : لقد بطش الظالمون الاوغاد بخير من انجبته الارض لقد قتلوا (الحسين بن علي) وأولاده وأهل بيته وأنصاره .. فويل لهم من حطمة ستصليهم ناراً تلتهم العظام قبل الاجساد

قلت : الحسين!؟ ابن بنت النبي ، وحفيد محمد ؟ أحقاً ما اسمع ام انا في منام ؟ أيقتل فخر العرب ومنبع الكرم والشهامة ؟

قال : نعم وا أسفاه

قلت : ولكن ما الذي جاء به الى العراق ؟

قال : القوم اهل الكوفة بعثوا في طلبه يريدون مبايعته وخلع بيعة يزيد

قلت : فما منعهم عن نصرته عندما دهمته الاعداء ؟

قال : لقد انفضوا من حوله جميعا ، وخدعتهم الوعود المعسولة، واشترى اولوا الامر ضمائرهم بالمال ، فكانوا للحسين سهاماً في وقت انتظر فيهم درعا يتقي بهم الرزايا

قلت : وماله لم يصحر الى يثرب بعد ان عرف لؤم القوم ؟

قال : أبوها عليه وسدوا القفار بالخيل والفرسان ؛ ولم يزالوا به حتى مثلوا به ولم يردعهم وازع ديني أو خلقي .. تالله ما امر هذه الكارثة .

قلت : ولكنه امرؤ مسالم فلم يكن خارجا عن الدين ، اوراغبا في الملك .. ألم يبايع مع الناس قبل سنوات ؟

قال : لم يبايع أبدا ، ولكنهم خاتلوا الناس ، في المسجد وموّهوا عليهم الحقائق ، وهيهات لمثل الحسين أن يرى على رأس المسلمين عربيدا ماجنا كيزيد ، فجل خلا المسلمون من سيد رشيد يرضي الله ويستقيم بهذه الامة الا من زير نساء ، وخدين اتراب ، وحليف طاس وندمان ؟

لقد حارب واستمات في سبيل عقيدته ، حتى هوى مثخناً بالجراح ، بعد أن شهد مصارع اخوانه في البلاء والجهاد

قلت : وكم كان هؤلاء ؟

قال : قلة لا يتعدون المائة امام جحفل لجب من شذاذ الآفاق ورعاع الكوفة

قلت وماذا كانت النتيجة ياسيدي فقد صدعت قلبي ؟

قال : انتهاك لأقدس الحرمات . . ودناءة لا تبدر من ألأم البشر ، فقد احرقوا خيام النساء وروعوهن بالخيل والاسنة بعد ان بقين بلا ناصر

قلت : وهل كانت نسوة الحسين معه في هذه المجزرة ؟

قال : نعم .. فقد حضرن معه ليشهدن البلاء والفجيعة حتى آخر فصولها ، فساقهن الاوغاد سبايا الى دمشق ليتمتع يزيد بمنظر شقائهن ولوعتهن

قلت : ولكن السبي محرم عند كل غربي ، ألم يعوا مبادىء الحرب التي وضعها جنود محمد ؟ ألم تتمثل وصية أبي بكر في نفوس المقاتلين وهو يوصيهم بالضعفاء من الشيوخ والنساء اذا ما حاربوا عدواً للاسلام ؟ أيكون اهل الحسين اقل حظاً من اناس حاربوا الاسلام في بدء دعوته ؟

قال : ماذا اقول يابني .. لقد ختم الله على سمعهم وابصارهم فتنمروا وتبدت فيهم طباع الوحوش الكاسرة فلم يراعوا إلا ولا ذمة

قلت : والجسد الشريف ماذا حل به ؟

قال : اقتطعوا رأسه ووضعوه على رمح مشهر يمرون به على الدساكر وينادون هذا حال من خرج على السلطان أما اجساد الشهداء ، فقد دفنها بنو أسد بعد أيام بعد أن لم يتقدم اليها أوباش الكوفة

قلت : ايه .. وماذا كان مصير سبايا الهاشميات ؟

قال : دخلنا الشام في يوم مشهود ، يتفرج عليهن كل من هب ودب من الصعاليك والعلوج ، هذا ويزيد راض ساكت . . ثم ادخلن عليه ، فنكث رأس الحسين بقضيب في يده ، وراح ان ينتقم من شبل الحسين « زين العابدين » فحمته من صولته عمته الحوراء زينب ، إذ ساجلت الطاغية وصكت سمعه ببيان تفجرت على مخارجه بلاغة أبيها ابن أبي طالب . . ودحضت كلامه واسمعته ما يكره حتى ضعضعت حواسه وجعلته احط من على الارض ، فخشي من صولتها . فصرفهم جميعا . .

قلت : وما فعل الله بتلك الشر ذمة الضالة ؟

قال : ان لها يوماً يموت على اعتابه كل من رفع صوتاً أو امتشق حساما

قلت : ياسيدي .. ان أخبارك هذه قد تركت في اعماقي جروحاً لن تندمل ، فرغم اني غريب عنكم ، ولكني بعد ماسمعت ، أكاد اتساقط اعياء وألماً اذ لم أتصور ان الامة التي بعثها المقذ الاعظم محمد ـ ص ـ وأودع بيدها مصائر الامم ، واقام لها مجداً وسؤددا في كل صقع ، تجازي حفيده الحبيب وآل بيته الاطهار على هذه الصورة المشينة . فتبا للقوم من سفلة أشرار وعزاء لروح محمد في السماء

قال : ثق يابني انهم مخطئون في زعمهم واعتقادهم بانهم قد تخلصوا من خصم عنيد بعد ان قتلوه .. انهم قد سودوا صفحات حياتهم بخزي وشنار سيمتد مع القرون .. وستظل ذكرى افعالهم المنكرة لعنة على أفواه الزمن ، وصفعة تدوي على أوجههم الصفيقة أما الحسين ، فسيظل ذكرى حية في كل قلب ، يقدس الناس ذكراه ، ويحفظون عنه هذا الدرس الخالد في التضحية والاباء

قلت : لقد ذهب الحسين شهيداً

قال : بل هو أبو الشهداء في كل العصور .

قلت : عاش الحسين حراً ومات حراً